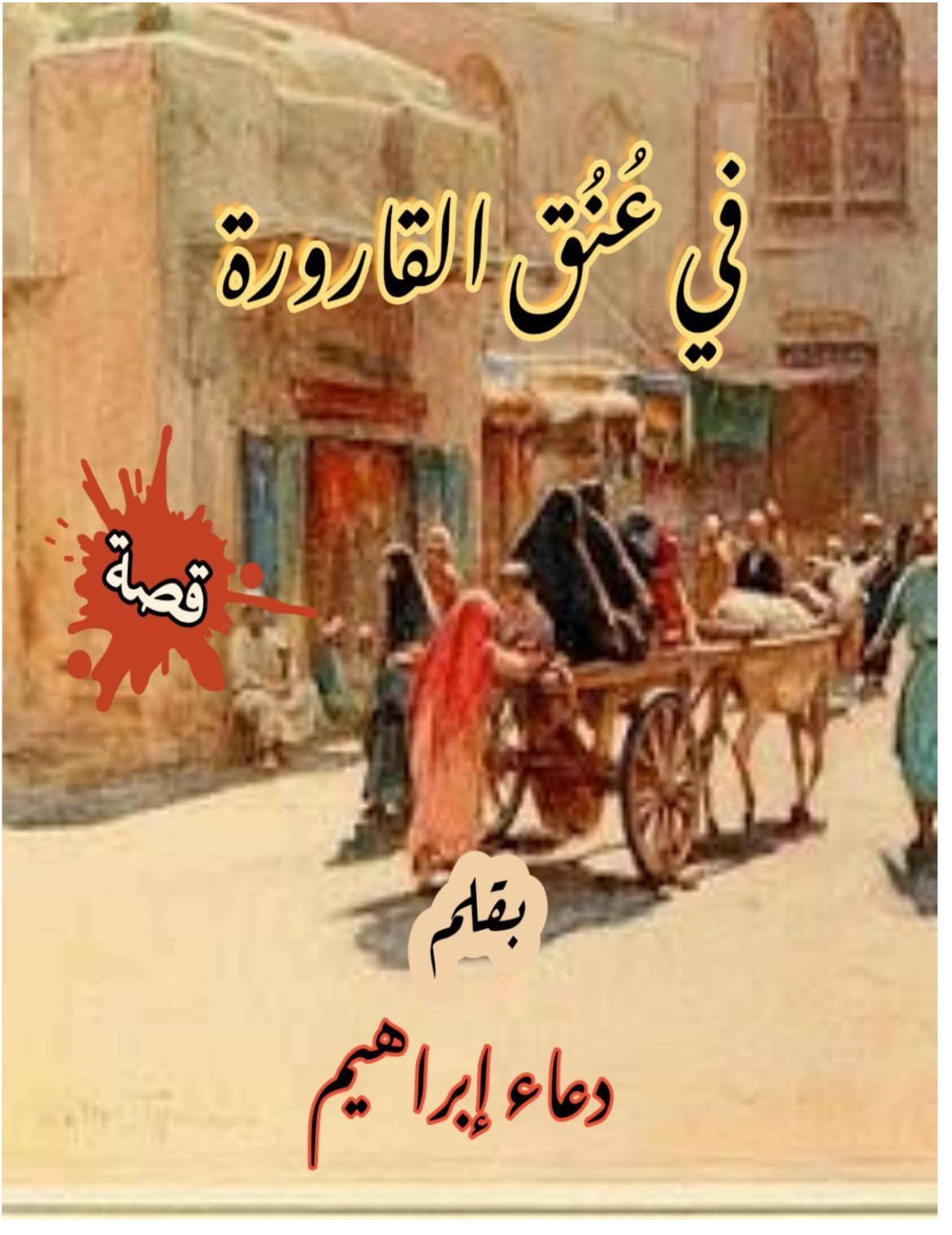
في عُنُق القارورة
قصة
بقلم
دعاء إبراهيم

في عُنُق القارورة

بقلم

دعاء إبراهيم

كنت أحتسي قهوتي الساخنة في شرفة منزلي، تحسست قطرات المطر بأصابعي، لمحت صديقي راضي قادم من بعيد تحت زخات المطر، تتقاذفه رياح الشتاء الهائجة، نظرت إليه من الشرفة أحثه على الصعود فقال بصوت مرتجف وهو يحاول النفخ في يديه ليُبدد برودتها بقليل من الدفيء:

_انزل يا رحيم بسرعة..

_لماذا؟ فلتصعد أولا ريثما يتوقف المطر.

قال وهو يضغط على أسنانه ليتحكم في اصطكاكها:

_انزل أولاً وسأخبرك..

استأذنت أمي في الخروج فحدجتنِ بنظرة لوم كأني لم أكن كبيرًا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، ارتديت معطفي وخرجت إلى راضي، سألته بفضول:

_ماذا في جعبتك يا صاحبي؟

_وجدت شيئًا ما في دار شِندي المهجور.

قلت باستثارة:

_هل تسللت إليه؟ أخبرني ماذا وجدت؟

_نعم، دخلته.. لكن لم أجد البشر المحنطة داخله بسبب اللعنة التي حلت عليهم كما أخبرونا قديما، إنه خاوٍ تمامًا إلا من شيء واحد.

_وما هو؟

اتسعد حدقتا عينيه وقال وهو ثاقبًا عيني بنظراته:

_وجدت قارورة كبيرة الحجم من الذهب، رأس فوهتها تسمح بدخول رأس إنسان.

اندهشت لما سمعت، خاصة أنه من الصعب أن يمتلك أحد في قريتنا البسيطة شيئًا من الذهب بهذا الحجم!

اقتربنا من دار شندي المظلم كانت عقارب ساعتي تشير إلى التاسعة والنصف، تخفينا قليلًا خلف جدار، ساعدتنا ظلمة الليل على ذلك حتى تأكدنا أن لا أحد يتتبعنا أو يرانا ثم تسللنا لداخل الدار بسرعة، دلفنا من الباب الحديدي الذي أصدر صريرًا مخيفًا جعل قشعريرة تسري في جسدي..

قمنا بهدم معتقدات وأساطير غُرِست بعناية في ذاكرتنا منذ الصغر، دار شِندي بالنسبة لقرية أبيس مكان قديم مهجور زعم آبائنا وأجدادنا أنه مسكون بالأشباح ومن يدخله تحِل عليه اللعنة ثم تبتلعه الأرض ولا يخرج منه أبدا أو يتحجر ويتحول إلى تماثيل حجرية.

كنت أشعر أنها ماهي إلا أساطير وخزعبلات لا صحة لها، شعرت برجفة وكأن أحدهم يتنفس خلفي، يبدو أنها أوهام يخلقها عقلي بسبب حالة الخوف التي ترعرعت في ذاكرتي، اصطدم قدمي بشيء معدني فانتفضت صائحًا فتَمَسَك راضي بذراعي بقوة، قمت بتسليط الكشاف الضوئي ناحية هذا الشيء، إنه غطاء القارورة مربوط بسلك حديدي موصل بيد القارورة، بجانبه حذاء نسائي ليس بالقديم.

تبادلت نظرات مع راضي تعني أن إحداهن دخلت هنا من قبل!

لكن أين هي؟ وماذا كان مصيرها؟ ولم تركت حذائها؟ هل تركته لهولٍ ما، رأته ففرت مسرعة ونسيته؟! إنه لشيء مربك حقًا!

جذبني راضي من أكمامي ناحية الباب عازمًا على الانصراف فأوقفته، قال آمرًا:

_هيا بنا يا رحيم.. هناك شيءٍ غامض ولن أضحي بنفسي من أجل إشباع فضولي.

_لن أغادر يا راضي قبل أن أعرف مصير تلك الفتاة، انتظر لنتفحص القارورة ونبحث في المكان عن شيء آخر..

قال يتوتر:

_ أنت تجازف يا رحيم.. تُجازف بحياتنا.

_لن يحدث شيء.. أنا سعيد بكسر حاجز الخوف الذي ترسخ في عقولنا وإشباع فضولي تجاه هذا البيت.

قطع حديثي صوت صرخة أنثوية قادمة من داخل القارورة جعلت عروقي تتصلب وشعري ينتصب خوفًا، جذبني راضي بهلع ناحية الباب فأفلت يده بسرعة، اتجهت ناحية القارورة نظرت داخل الفوهة فلم أجد شيء لكني شعرت بنغزات في نعلي كادت تثقب قدمي لولا أن خلعتهما بسرعة وتركتهم بجوار نعال الفتاة، كان راضي ينظر إليَّ من بعيد بترقب متوسلًا بالمغادرة، لكني لم أُشبع فضولي بعد. نظرت مرة أخرى في القارورة فانزلقت رأسي داخلها وتضائل جسدي وابتلعتنِ دون مقاومة مني.

كان راضي يحاول تحريك القارورة بعنف لتلفظني خارجها، سمعت صرخاته تتداوى في المكان:

_رحيييييم... لن أتركك يا صديقي مُد لي يدك، رحيم عُد..

حاول إدخال رأسه في عنق القارورة هو الآخر فلفظته بشده فسقط أرضًا، ظل يلهث، يكاد يجن، ينظر حوله في ذعر، يتأمل جدران المنزل المكسوة بخيوط العنكبوت، يصرخ بشدة:

_أيها المنزل اللعين! أعد لي صديقي.. أعده لي.

ظل يتلفت حوله بهيستريا، يحاول تحريك القارورة دون فائدة، فسقط أرضًا مغشيا عليه.

وانزلقت أنا بعدما حُفِر في رأسي صديق عمري ملقى أرضا فاقدا وعيه.

شعرت أنني أنزلق في فوهة عميقة، أدور في هالات من ألوان الطيف تتداخل بعضها في بعض، غصة تندفع إلى حلقي جعلتني أختنق، لا.. لا مجال لفقدان الوعي الآن، لابد أن أخرج من تلك الفوهة، حاولت الصراخ لكنه خرج مكتوما لا يتجاوز عقلي، حاولت التشبث بشيء، يدي عبرت من خلال الهالات الملونة كأنني أغرق داخل عقلي أو كابوس يتملك مني، لا جدوى من محاولة النجاة، استسلمت جفوني في وهن، غرقت في اللا شيء وفقدت إحساسي بالوجود.

شعرت بلسعات أشعة الشمس الحارقة تتسرب إلى جفوني المتثاقلة كأنها سهام غليظة تجبرها على إفساح الطريق لمداعبة عيني، فتحتها ببطيء، جلست بجسمٍ متع، مرهق، متكسر العظام، نظرت أمامي فإذا بابًا كبير من الحجر يتوسط بنايتين من طابقين، بدا غريبا بالنسبة لي، تلفتت حولي بقلق تساءلت.. أين أنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟

تذكرت دار شندي والقارورة وراضي صديقي المغشي عليه قمت سريعا أتلفت حولي أبحث عنه فلم أجده!

نظرت في ساعتي التي توقف عقاربها على التاسعة والنصف، سرى إليَ إحساس بالخوف الشديد، مر من أمامي أحد الباعة يرتدي ملابس غريبة، يجر عربة خشبية عليها أقمشة ومنسوجات يتجه ناحية الباب الكبير، استوقفته وقلت بتلعثم:

_معذرة.. أنا غريب تائه.. أين نحن الآن؟

نظر إليَ الرجل بريبة ثم قال:

_كيف تتوه أمام باب المحروسة..؟ باب النصر.. باب القاهرة يا سيدي!

ازدردت ريقي خائفا متخبطً تتصارع الأفكار في رأسي.. كيف جئت إلى هنا؟ لمَ يبدو الرجل غريبًا؟!

تأملني الرجل متعجبا ثم تركني وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها، تسللت ورائه من ذلك الباب وكأن قدمي ساقتني رغما عني.. فإذا بي داخل مدينة مغلقة على أهلها بسورٍ كبير، الكثير من المِحال الضيقة المتراصة بجوار بعضها، الرجال حولي يرتدون ملابس غريبة _لم اعتادها_ الرجال يرتدون العمامة والنساء يغطين وجوههن بالبُرقُع وكأني سقطت في لوحة فنية عن القاهرة قديما، شعرت بوحشة تجتاحني ورعشة تأسر جسدي المجهد.

واصلت المشي لمدة طويلة لا أعلم مداها أحاول الفرار أو العودة إلى داري فلم أهتدِ السبيل إليه. معالم المكان تغيرت! البنايات، الناس، الأثاث والملابس.

جلست بجوار أحد المِحال وكان يبيع خبزًا رائحته طازجة، تضورت جوعًا وبدأت معدتي في إصدار قرقرة تطلب ما يسد رمقها.

أقبل رجل يبدو عليه الهزال فسأل صاحب المخبز أن يعطيه رغيفًا فإذا به ينهره ويلقي به بعيدًا قائلا بضجر:

_ابتعد أيها الشحاذ الفقير.. اذهب إلى الخليفة واطلب منه أن يعيرك خمسة عشر دينارًا ثمن رغيف الخبز، لعله يدرِ بالورطة التي وضعنا فيها هو ووزيره.

تراجعت عن فكرة طلب رغيفًا يسد جوعي، يبدو أن الكرم صفة متنحية في هذا الزمن الغريب، انتبهت لسعر رغيف العيش.. كيف يكون ثمن الرغيف الواحد خمسة عشر دينارًا!!

انتهزت فرصة انشغال الرجل بجِوال القمح وسرقت رغيفًا ثم أخفيته بسرعة تحت قميصي وانزويت بعيدًا.. كيف فعلت ذلك يا رحيم؟! أتسرق؟! كيف استبحت ما ليس لك به حق؟!

جلست في أحد الأزقة ألتهم الخبز في نهم، تتطاير إلى سمعي كلمات صاحب المحل المجاور يقول للعامل الذي يعمل معه :

_استمع إليّ يا رشاد.. البضاعة في المحل قرُبت على النفاذ وهكذا المخازن، لا أملك ما أنفقه لشراء بضاعة جديدة والسوق راكد لا بيع فيه ولا شراء، لن أستطيع دفع أجرة لك من الآن، فاذهب إلى حال سبيلك وابحث عن عملٍ آخر وليرزقك الله ويرزقني.

رد العامل بصوت مختنق بالبكاء:

_ أرجوك.. دعني أعمل عندك ولا حاجة لي في الأجر، أعطني رغيف من الخبز كل يوم أطعم به أطفالي وزوجتي ولا حاجة لي في المال..

قال التاجر بأسى:

_يا بني أنا بالكاد أطعم أسرتي، كما تعلم جفاف مياه النيل وتخريب الجنود للأراضي الزراعية وقنوات الري بعد تفككهم جعل الأزمة تشتد أكثر.. ولم يعد هناك ما نأكله، فلتذهب وليرزقنا الله.

ازدردت ريقي في خوف شاخصًا بصري في العامل وهو يسير ناكسًا رأسه باكيًا، يضرب كفًا بكف، اتبعته حتى وصل إلى داره، طرق بابه طرقتين ففتحت زوجته بلهفة قائلة:

_ هل جئت بشيء نأكله؟

هز رأسه نافيا بأسى، فلطمت فخذيها باكية وهي تتمتم:

_أبناءك سيموتون جوعى يا رشاد وسنموت معهم..

ثم أغلقت باب الدار بعنف فلم أعد أسمع شيئا.

جلست بجانب الدار على مصطبة من الحجر، أحاول ترتيب أفكاري لعلي أصل لشيء، تُرى قذفتني القارورة في أي زمان؟ ولم فعلت بي ذلك؟ كيف أعود إلى داري؟ بالتأكيد أمي قلقة للغاية، كيف سأخرج من هذا المأزق؟ غلبني النعاس على المصطبة وأنا أفكر، تقلبت أثناء نومي كثيرًا ولم تؤرقني صلابة المصطبة.

استيقظت في الصباح، جلست أفرك في عيني أتذكر أين أنا؟ غوصت في نوم عميق وكأني نمت على سرير ممهد امتص أوجاع جسدي المرهق، قمت وعزمت الأمر على أن أجمع المعلومات الكافية التي ستساعدني في الفرار من هذا العالم، قضمت باقي الرغيف الذي تبقى مني بالأمس ولا أعلم لماذا لم أعطيه للمرأة التي بكت من شدة جوعهم! يبدو أن خصالي تغيرت بتغير الزمان والمكان، كيف يدفعنا الخوف من الجوع إلى التخلي عن فضائل غرست فينا منذ الصغر!

تجولت في السوق لا أعلم وجهتي، لاحظت حالة من الركود العام، لا أحد يشتري أو يبيع، الباعة جالسون كأن على رؤوسهم الطير، لفت انتباهي رجل يبيع ملابسه وأشياء ثمينة من أثاث بيته وبعض مصوغات زوجته مقابل جوال من الغلة، تأملت المصوغات فاغرًا فاهي من الصدمة؛ فهذه المصوغات قيمتها أغلى بكثير من جوال الغلة! على الأقل في زمني، هل فقد الناس صوابهم؟! علا ضجيج التاجر والرجل؛ اختلفا على حجم الجوال، فقد كان أصغر مما توقع الرجل لكنه رضى بالبيعة على أية حال، أعطى للتاجر زكيبة من الخيش بها الملابس المباعة وحمل جوال الغلة بين ذراعيه كأنه يحمل ابنه يخشى عليه من الضياع أو السرقة، أما التاجر فألقى زكيبة الملابس جانبًا ويعلو ثغره ابتسامة ساخرة.

تسللت ناحية الزكيبة وأخرجت منها جلباب، اختبأت خلف الدكان وارتديته ليخفي ملابسي التي يطالعها الناس بدهشة.

سمعت ضجيج وصراخ وعلا الصياح فتوجهت ناحية الصوت فإذا بامرأة واقفة على مصطبة عالية في وسط السوق تصيح في الناس قائلة بهيستيرية:

« يا أهل القاهرة.. ادعوا لمولانا المستنصر بالله الذي أسعد الله الناس في أيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار»

علت الهمهمات وتوالت الكلمات الغاضبة المستنكرة للوضع الذي آلت إليه البلاد، انقسم حال الرجال ما بين اليأس وقلة الحيلة، ناكسو رؤوسهم ترهقهم ذِلة، استحال لون جلودهم إلى صُفرة ذبول أوراق الشجر، تعبث بهم رياح الجوع والعَوَز، لا يقدِر الواحد منهم على سد جوع بطون تعلقت في رقبته ولا حتى سد جوع نفسه! اقتربتُ من أحدهم يبدو نحيلًا، هزيلًا، أكل الزمن من روحه قبل جسده، سألته بفضول:

_ ما بال المرأة التي تصيح؟

أجاب بخزي ارتسم على وجهه:

_هذه امرأة باعت عقدًا ثمينًا لها قيمته تجاوزت الألف دينار لتشتري القليل من الدقيق لتطعم أهلها لكن.. لكن الناس نهبوه منها وهي عائدة لدارها ولم يتبق لها سوى ما يكفي لخبز رغيف واحد..

انعقد لساني وعجزت عن الرد فضرب الرجل كفًا على كف ومشى بعيدًا، تتبعته عيني فإذا بالرجل يبحث في القمامة عله يجد شيئًا يؤكل.

الأمر أصعب مما تخيلت! الأزمة ليست فردية، إنها أزمة شعب بأكمله، الآن أصبح جل همومهم أن يجدوا ما يسد رمقهم، فَقَدَ كل شيءٍ قيمته إلا الخبز، استطعت جمع بعض المعلومات حول سبب تلك الأزمة، بدأت بسوء إدارة الوزراء الذين عينتهم السيدة رصد (أم الخليفة) خلت المخازن السلطانية من الغلال مما ساهم في رفع

الأسعار وشدة الغلاء، وما زاد الطين بلة انقسام طوائف الجيش فعاث بعضهم في الأرض فسادًا، خربوا أنظمة الري وأفسدوا الأراضي الزراعية في ذات الوقت الذي جفت فيه مياه النيل مما زاد الأمر سوءًا.

لم قذفتني تلك القارورة اللعينة إلى هنا؟ أود العودة إلى داري، اشتقت لضمة أمي وراحة البال، كان الحشد كبيرًا من النساء والرجال، اقتربت مني إحداهن رمقتني بنظرة لهفة لم أفهمها ولم يكن يظهر من وجهها سوى عينيها، رفعت البرقع الذي كان يخفي وجهها ثم قالت مستغيثة:

_رحيم...

تأملت وجهها المألوف لعيني وقلبي غير مُصدق، يبدو أنني أهذي، شخصت بصري فيها وقلت:

_نبرة!! هل أنتِ نبرة حقًا؟

نبرة ابنة شيخ قريتي، والتي يميل لها قلبي وعقلي.. سألتها بحيرة:

_كيف جئتِ إلى هنا؟! أم انني أحلم؟

قالت والدموع تتسابق إلى وجنتيها:

_القارورة التي جاءت بي وبك إلى هنا.. قارورة شِندي

حاولت تهدئتها ثم سألتها:

_هل توصلتِ لسبيل العودة؟

هزت رأسها نافية بيأس.. فقلت:

_أخبريني عن أي شيء تعرفينه .

قالت بيأس:

_لقد قذفتنا القارورة في عهد الخليفة أبو تميم معد المستنصر بالله الفاطمي.

_وكيف عرفتِ بذلك؟

_أنسيت أن مجال دراستي التاريخ في الجامعة!

اضطربت ملامحها ثم قالت بحزن:

_إننا نعيش الآن أزمة الشدة المستنصرية، أرجوك لابد لنا من العودة سريعًا وإلا سنموت هنا جوعى..

أخافتني كلماتها وازددت خوفًا عليها، تذكرت الحذاء النسائي الذي رأيته بجوار القارورة فابتسمت.. أن يجمعني بها القدر هنا في هذا الضياع! أو أرسلني الله لأكون سبب أمانها ونجاتها! أو جمعها بي لتؤنس وحشتي، أو لأنني أحبها.

تنحنحت فأخرجتني من شرودي فسألتها:

_أين تقيمين؟

فقالت:

_ليس لدي مأوى، أختبئ في أي زقاق ضيقة لا يراني فيها أحد حتى يطلع النهار أتجول في الشوارع طيلة اليوم حتى تتورم قدماي وتقرقر معدتي من الجوع فأبحث عن أي شيء يؤكل..

ذهبنا معًا إلى مخبز قريب، حاولت جذب انتباه صاحب المخبز وأفاوضه أن يبيع لي رغيفًا بنصف ثمنه مما أثار غضبه وكادت الأيدي أن تشتبك وانهال لسانه بسلسال من الألفاظ البذيئة بينما قامت هي بسرقة الخبز وابتعدنا عن المكان وتقاسمناه وكانت تلك أول لقمة تجمع بيننا، تمناها قلبي منذ زمن بعيد وقد جعلها ربي حقا..

مرت أيام وربما أشهر فقد كنا فاقدين الإحساس بالزمن كأننا في حلم طويل لا نفيق منه أبدا، أو أن أحدٍ منا يعيش في ذاكرة الآخر، 8أو كلانا يعيش في ذاكرة شندي ذاته..

اشتدت الأزمة ولم يعد هناك غلال أو خبز، تفشت حالة من القحط، الكل يبيع ما لديه مقابل حفنة قمح أو قُضمة من رغيف ، بدت الوجوه شاحبة والأجسام هزيلة ضعيفة لا تقوى على الحركة، خِماص البطون؛ بينما أنا ونبرة لم يتغير فينا شيء، نشعر بالجوع مثلهم لكن أجسادنا تتمتع بصحتها كما كنا عليه من قبل مما يثير فضول من يرانا، لم يصيبنا هزال أو شحوب، يظن البعض أننا نخبئ جِوالات من القمح نقتات عليها؛ ما جعلنا نغير أماكننا من حين لآخر أو نختبئ في أحد الزقاق المهجورة.

مرت أسابيع ولم توقد قِدر واحدة في البيوت، ازداد الوضع قحطًا وسوءًا وزاد معه خوفنا من أن نضيع في ذلك العالم الموحش ولا نستطيع العودة أبدا..

جذبتني نبرة من أكمامي مشيرة بسبابتها إلى فمها تحثني على الصمت فاتبعت خطواتها بحذر، اختبأنا خلف أحد الجدران المهدوم. رأيت ما لم يستطع عقلي تصديقه، رجل يجلس بجانب كومة من القمامة وأمامه كلب مذبوح يسلخ عنه جلده ثم يضعه على خشب محترق ليشويه وما إن انتهى من طهو؛ التهمه كغول انقض على فريسته بوحشية متلذذًا به.

شعرت بالتقزز الشديد والاشمئزاز وابتعدت نبرة لتفرغ ما في معدتها الخالية لو كان بها بقية من طعام أسبوع مضى!

تكرر ذلك المنظر الشنيع أمامنا كثيرًا من أشخاص مختلفين حتى صار الأمر اعتيادي معتادًا، أن تجد أحدهم يلتهم قطًا أو كلبًا بين أنيابه بمنتهى التلذذ! أسكت صوت الجوع كل أصوات الإنسانية والتحضر، دعس كل ما تبقى في عقول الناس من الفطرة التي فُطِروا

عليها دون وعيٍ منهم، استسلم الجميع وأكلوا كل ما هو حي بل وأكلوا الجيَّف!

فإذا وُجد الجوع ذهبت المبادئ وتبخرت القيم وتحجرت القلوب وأصبحت معاني الإنسانية مصطلحات نظرية لا معنى لها.

أصبح الناس كأشباح تتجول كل ما يشغل عقولهم هو تدبير ما يسد جوعهم المضني.

الغريب أنني كلما رأيت أحدهم يأكل لحم الكلاب يسري في نفسي فضول لتذوق ذلك اللحم! يبدو أنه بسبب شدة جوعي طابت نفسي لأكل أي شيء حتى لو كانت جثة كلب متعفن، أنا صرت مثلهم تمامًا، الجوع والعوز أنساني خصالي الحميدة..

أصبحت روحي متعبة لهول ما رأيت، كلما زادت الشدة كلما زاد جشع واستغلال الناس للأزمة أكثر؛ حتى أن الكلاب والقطط بيعت بثماني دينار! رغم أن بائع اليوم هو جائع الغد لكن لم يعد يهم، الاستغلال مرتبط ارتباط وثيق بالأزمات.

نظرت إلى نبرة التي كساها الهم والغم، وأصبح الصمت المطبق من شِيَمها، كلما لدغها الجوع صبرتها بالعودة القريبة إلى زماننا ونسيان كل ذلك، لكننا لن ننسى!

الموضوع بالنسبة لنا أشبه بكابوس مشترك نعيشه معًا ولا أدري متى سنفيق منه. خلت الشوارع من القطط والكلاب وحتى الفئران، لم يعد هناك ما يؤكل.

بينما كنا جالسين في أحد الزقاق تدارك إلى مسامعنا استغاثة رجل يتوسل لأحدهم أن يتركه، اختبأنا كعادتنا وشاهدنا أحدهم يربط رجلاً في صخرة كبيرة ثم شرع في ذبحه، فرت صرخة من نبرة سارعت بكتمها بيدي خوفا من أن يرانا الرجل، تسارعت ضربات قلبي خوفا وأنا أرى الرجل يقطع من لحم الآخر ويضعه في قِدر ليطهيه، حتى

ظننت أن ضربات قلبي كطبول رنانة قد يسمعها الرجل ويأتي ليذبحنا لنصبح وجبة دسمة له.

فقدت نبرة وعيها من هول ما رأت فحملتها بعيدًا وأيقظتها فبكت بشدة وارتعش صوتها كنحيب الأطفال، ظلت تتحدث بكلمات متقطعة تقطعت لها روحي وقلبي حزنًا عليها.

الجميع يبحث عن النجاة من الموت حتى لو وصل الحال إلى أن يأكل جثة متعفنة أو يصطاد إنسان مثله فيقتله ويحصل على لحمه متخليًا عن آخر ما تبقى من إنسانيته، المهم البقاء على قيد الحياة.

ازدادت الجرائم وتفشت الأمراض مما زاد الأمر سوءً حتى أن عدد السكان قل كثيرًا.

كنا نتجول في السوق الذي تبدل حاله إلى قبور موحشة لعلنا نجد مهرب إلى عالمنا، دوى صراخ لامرأة فاقتربنا قليلًا منها لنعلم ماذا أحل بها، فقالت:

_ضاعت ابنتي.. في الحادية عشر من عمرها بدينة قليلًا وبشرتها سمراء، ألم تجدوها؟

هززنا رأسنا نفيًا فتابعت المرأة قائلة بعويل:

_أخشى أن يأكلها الذئاب الآدمية ولم يعد لي من أهلي أحد غيرها، قضت عليهم الملاريا والجوع.

ظلت تكرر جملتها السابقة وتبحث حولها بجنون، كادت تفقد لُبها، لم تعد قلوب الناس تتحرك لمثل ذلك المشهد، لم يتحرك أحد ليبحث عن ابنتها فمصيرها محسوم.

جاء صوت منادٍ من بعيد ببيان للناس:

«يا أهل القاهرة الكرام.. اسمعوا هذا البيان..

سُرِقت بغلة الوزير.. ولمن يجدها مكافأة رغيفان»

تناثرت الأقاويل وزادت الهمهمات، الجميع عزم على البحث عن البغلة والأغلبية سيبحثون عنها ليقاسموا السارق فيها.

جلسنا بجانب باب خشبي كبير نتحدث في أمر بغلة الوزير فسمعنا صرخات طفلة ثم انقطع الصراخ فجأة، تبادلنا النظرات وأدركنا ما يحدث داخل ذلك الدار، نعلم جيدًا أن الابنة المخطوفة بالداخل وقد تكون وجبة شهية لهذه الأسرة اليوم!

قمنا وابتعدنا عن ذلك الدار، لم يجرؤ أحدنا على التفوه بما جال في خاطره فور سماع صرخات الطفلة، كظمنا مرارة الخوف داخلنا، حاولنا متابعة الحديث فلم نستطع، ساقتنا قدمينا إلى أحد الزقاق الذي تميز بانخفاض منازله، سرنا كأصنام متحجرة عاجزة عن رفض الواقع الأليم مكبلة بقيود لا نعلم متى ستنفك عنا، فجأة سقط خطاف من أعلى منزل مجاور قاصدًا نبرة فعانقتها وانبطحنا أرضًا لنتفادى الخطاف ثم أسرعنا بالهروب منحنيين الظهر حتى لا ينتشلنا خطاف آخر، إنه زقاق القتل.. يصطادون الناس من أعلى المنازل ليكونوا وجبة دسمة لهم اليوم، اختبأنا في إحدى الأراضي المهجورة خلف صخرة كبيرة.. جلست نبرة وبكت بكاءً تقطعت له نياط قلبي، حاولت تهدئتها وكنت أحتاج لمن يطمئنني، ابتلعت خوفي في حلقي وتظاهرت بالصلابة وكنت هشًا من الداخل، سألتها:

_في أي مكان قذفتكِ القارورة بالتحديد؟!

أجابت بصوت متقطع من شدة البكاء:

_أمام باب النصر.

قلت مؤكدًا:

_لابد أن العودة ستكون من نفس المكان، دعينا نبحث هناك عن شيء يشبه القارورة لعلها السبيل للعودة.

نظرت لي بيأس ثم قالت:

_أود أن أخبرك بشيء يا رحيم.

قلت مداعبًا:

_ألقي ما في جُعبَتِك... كُلي آذان صاغية.

قالت بارتباك:

_أنت لم تأتِ هنا بمحض الصدفة.. لقد استدعيتك قبل عبور الفوهة.

لم أستطع تحديد شعوري في تلك اللحظة، هل يعتريني الفرح لاستدعائها لي دون الآخرين؟! أم أحزن على ما آل إليه أمرنا!

ابتسمت لها ثم قلت:

_كيف فعلتِ ذلك؟

أجابت بتردد:

_كثيرًا ما جذبني فضولي ناحية دار شندي، كنت أشك أن وراءه سر عظيم، فتسللت إلى الدار وعندما وجدت القارورة وجدت بجانبها مخطوطة مكتوب عليها (اخلع نعليك؛ هنا دُفِن التاريخ، فلتستدعي من شئت لمرافقتك) لم أفكر كثيرا خلعت نِعَالي وقفزت داخل فوهة القارورة، شعرت أنها تجذبني بشدة وانتابني الخوف الشديد، حاولت الخروج فلم أستطع فاستغثت بك، ظللت أنادي باسمك حتى وجدتني ملقاة على الأرض أمام بوابة المحروسة كما أخبرني أحد المارة.

شعرت بالتخبط والحيرة من أمري وأمرها، أخفضت بصري عنها حتى أخفي مشاعري ناحيتها، تدفقت العاطفة إلى قلبي فكبلته وجعلته أسيرًا لها، قلت وأنا أجاهد من أجل تشتيت نظراتي عنها:

_استدعائك لي حث قلبي على الصمود حتى تعودي سالمة إلى دارك.

قالت بخجل ممزوج بيأس:

_هل حقًا سنستطيع العودة؟

_نعم، الله جمعنا في هذا المكان وقادر على إعادتنا لبلدنا معًا.

قطع حديثي صوت خطوات تبتعد شيئًا فشيئًا حتى تلاشت، لم نبحث عن أثار الأقدام كثيرًا، فرائحة الشواء داعبت أنفي من مكان قريب فاتبعت الرائحة، يبدو أن أحدهم انتهى من التهام فريسته البشرية للتو، تأكدت من خلو المكان ثم اقتربت ناحية بقايا الشواء، عظام طويلة بها بقايا قطع لحم متناثرة وبالتأكيد ليست بعظام حيوان، الجوع يفتك بمعدتي التي لا تكف عن القرقرة تحثني على تذوق اللحم، قربتها من فمي بيدٍ مرتعشة كدت أتذوقها لولا شهقة أصدرتها نبرة بخوف:

_رحيم.. أرجوك لا تفعل.

نظرت إليها بضعف وقد هزمني إحساس الجوع، تناسيت أنها لحم إنسان مثلي لكن النزعة إلى البقاء قد تدفعك لفعل ما لا يتخيله عقل.

ألقتها نبرة من يدي بحزم فسقط اللحم أرضًا، رمقتني بنظرة خوف وحزن لم أتحملها، هل تخشاني؟ هل تخاف أن آكلها؟!

منذ أن وطئت قدمي هذا المكان وانقطعت صلتي بنفسي وبمبادئي، سرقت حتى أشبع! كان بيدي قطعة خبز ولم أعطها للمرأة الجائعة! تلاشت صفة الكرم والأمانة وقتلني اليأس، لم يكن أمامي سوى بابٍ واحد لا ينغلق أبدًا، جثوت على ركبتي ورفعت يدي للسماء وقلت: «يا رب.. كيف أضيع في ملكوتك وأنت القادر على ردي إلى داري وجمعي بضالتي! كيف أتيه في الكون الفسيح وأنت وجهتي وقبلتي يا رب رُدني»

في الصباح عزمنا الأمر على التوجه إلى المكان الذي قذفتنا فيه القارورة، مشينا بخطواتٍ متثاقلة محبطة، لا نعلم إن كان هناك منجاتنا أم لا؟ وفي طريقنا كان هناك تجمع مهيب، شققت الزحام حتى لاحت لي حبال متدلية من باب النصر، يبدو أن أحدهم حكم عليه بالإعدام شنقًا.

اقتربت من أحد الرجال يضرب كفًا بكف ويقول بضجر:

«إعدام ثلاثة رجال من أجل دابة الوزير! فاسألوا الوزير ما بال البطون التي نهشها الجوع؟ لو كان هناك ما يسد رمقهم لما سرقوا، ثلاثة رجال بدابة!! الغوث يا رب الغوث»

التف الناس في مشهد مهيب يشاهدون الحراس وهم يدفعون الثلاثة رجال الذين أكل الهزال أجسادهم واختفت أعينهم في محجريها من شدة الضعف إلى منصة الإعدام.

شقت مرارة الظلم طريقها إلى حلقي أم أن لعنة الجوع فرت من أجسادهم الهزيلة لتذيقني وكل من يشهد إعدامهم مرارة عيشهم وسوء الميتة.

مرت ثوانٍ قليلة وفاضت أرواحهم إلى بارئها، نجوا من ظلمات الأرض إلى عدالة السماء..

قل الازدحام حولنا ولكن لم نستطع العبور خارج أسوار المدينة، جلسنا على أحد المصاطب مطبقين الفم وكأن على رؤوسنا الطير، داعبت أصابعها الحصى الصغير الملقى بجانبها وقالت بشرود:

_ليتني ما اتبعت فضولي، ليتني لم أدخل دار شندي من الأساس.

قلت مهونًا:

_لا تُحملي نفسك فوق طاقتك، فلربما نجد الحل قريبا.

_الأمر أصعب مما تخيلت، كنت أعلم الكثير عن الشدة المستنصرية، ظننت أن الكتب تبالغ في نقل الأزمة لكن الحقيقة أصعب بكثير، والأصعب أن تعيشها.

ضيقت عيني وقد لاح لي بصيص أمل من بعيد سألتها مستفسرًا:

_أخبريني كيف انتهت تلك الشدة؟

نظرت إليَّ باهتمام وقد فهمت ما أرمي إليه وقالت بحماس:

_بدر بن عبدالله الجمالي، إنه من يملك مقاليد الحلول، سيصلح قنوات الري التي أفسدها الجنود المخربين وسيطردهم من البلاد وسينهض بالزراعة وستفيق البلاد من كبوتها.

نظرت إليها وانتابتني نوبة من الضحك:

_أتعلمين يا نبرة.. أخشى أن نكون عالقين في ذاكرتك أنتِ لا ذاكرة شندي.

غلبنا النوم في أحد الأزقة الخالية من المارة مختبئين خائفين أن نكون صيدٍ سهل لأحدهم، استيقظنا في الصباح على أصوات صياح وضجيج ناحية السور المعلق عليه الثلاث رجال، فاتجهنا ناحية الصوت.. شخصت بصري فزعًا حينما رأيت الثلاث رجال عبارة عن هيكل عظمي سُرِق لحمهم من أجسادهم، لقد أكلهم الناس!

صار الناس وحوشًا آدمية تمتلئ بطونهم بلحوم بعضهم البعض، والأدهى أنهم صاروا يتفننون ويحتالون من أجل صيد اللحوم البشرية بطريقة لا تلفت الأنظار إليهم، فبعد تفشي الأمراض بينهم كان يستدعي الواحد منهم الطبيب ثم يقتله ليصبح وجبة له ولأهل بيته.

بيعت الخطاطيف والكلاليب في السوق ليستخدمها الناس في صيد فرائسهم من فوق أسطح المنازل، هلك الكثير من الناس فمن لا يقتله الجوع يقتله المرض أو يصبح فريسة لغيره..

توارد على ألسنة الناس أن الوالي باع كل ما لديه ليطعم أهله، حتى أنه باع رخام المقابر الخاصة بآبائه، لم يعد يملك إلا حصيرة يجلس عليها وبغلة يركبها، وغلام واحد لخدمته.

تملكني الفزع ولم يعد لديَ حجج أهون بها على نبرة، سألتها:

_هل أنتِ متأكدة أن الحل في يد بدر الجمالي؟

قالت بجمود دون أن يتحرك لها رمش:

_نعم.

إذن علينا لفت انتباه الخليفة ناحية الجمالي، وبذلك ستنتهي الأزمة.

قالت بشرود:

_لكننا سنظل عالقون هنا، الأزمة انتهت منذ أعوام كثيرة، نحن من اختار أن يعيش هنا.

_تقصدين أننا لن نستطيع العودة؟

لم تُجب سؤالي، فرت الدموع من بين جفنيها بغزارة..

شعرت بالحنق فصرخت في وجهها:

_لن نظل عالقون هنا.. هل تسمعيني؟! حتما سنعود، طالت المدة أو قَصُرت سنعود يا نبرة.

نهضتُ وجذبتها من ذراعها، قلت محاولًا طمأنتها رغم خوفي:

_هيا سنذهب الآن إلى الخليفة ونخبره أن الحل في يد بدر الجمالي.

سحبت ذراعها من بين أصابعي، مسحت دموعها بأطراف أكمامها ثم قالت محاولة تهدئتي:

_لن تستطيع تغيير التاريخ.. التاريخ لا يتغير مهما حاول الآخرون العبث به أو تدليسه أو حتى نسب إنجاز لغير صاحبه، دع الأمور تسير كما هي ودعنا نفكر في حل لعودتنا لعالمنا.

هدأت قليلاً ثم قلت:

_إذا تركنا الأمور تسير كما هي سنموت خوفًا أو على يد أحدهم وتلتهمنا البطون، على الأقل نترك خطاب للخليفة فيه إشارة لبدر الجمالي..

_وبعدها..! سنظل هنا نتجرع الوحدة والوحشة بلا أهل.. نحن قذفنا بأنفسنا في القارورة بمحض إرادتنا لكن العودة.. ستُسلب إرادتنا.

_فلنحاول..

_أنت هنا مُسيَّر لا مُخَير، تسرق، تبخل، وقد تقتل لتشبع..! أنت لست أنت، أنت كما لو كنت في وقت الشدة، في عالمنا لم تضغط علينا الظروف لتقيس مدى صلابتنا وتمسكنا بمبادئنا، دعنا نرى ما تريد القارورة أن تُريه لنا.

جلست القرفصاء واضعًا رأسي بين يدي أحاول التفكير في كلمات نبرة، هل أترك نفسي في هذا العالم المحاط بالمخاطر؟! أم أحاول تغيير الواقع؟ لكني لست في واقع، وأيضا الخيال ليس بهذه القساوة!

جاء صوت المنادي من بعيد ببيان لم أتبين كلماته جيدًا، جريت لأقترب من صوته لكنه صار أبعد، سألت أحد الواقفين عما قاله المناد فقال:

«الخليفة أمر بتعيين بدر الجمالي والي عكا شئون البلاد وعلينا السمع والطاعة وتنفيذ الأوامر»

شعرت بفرحة عارمة اجتاحت صدري، بصيص من النور اخترق الظلام، عدت مسرعًا لنبرة لأخبرها بالأمر الجلل لكني لم أجدها بحثت عنها في كل الزقاق المحيطة لكن بلا أثر، نهش الخوف صدري، هل أصابها مكروهًا؟ تورمت قدماي من البحث في كل مكان بلا فائدة، شعرت بتأنيب الضمير والحرقة، أضعتها وأضعت نفسي معها، لن أعود بدونها أبدا، فلنعود معًا أو أموت هنا.

مرت أيام أبحث كل يوم واسأل من يقابلني عنها، تذكرت المرأة التي فقدت ابنتها وظلت تجوب الشوارع بحثا عنها لكن الابنة مصيرها كان محتومًا، زجرني أحد العسس للذهاب إلى السوق الكبير بالمدينة عنوة؛ إنهم يجمعون الناس للاستماع إلى بيان بدر الجمالي.

توجهت مع الجموع أحمل فوق عاتقي همًا يفتك بصدري لولا أن ثبتني الله، على أمل أن أجدها وسط هذا الحشد، وقف الجمالي وحوله الكثير من الجنود، كان هناك رجال مكبلين، توعد لكل من تُسَوِل له نفسه أكل لحم إنسان مثله بالقتل، ثم هوى بسيفه على أعناق الرجال المكبلة ففاضت أرواحهم، عم الذعر بين الكثير، فصاح في الناس يهددهم ويتوعدهم أن يلاقي نفس المصير من يفعل فعلتهم الشنيعة أو لمن يجد في داره لحوم بشرية، خاف الناس ومنهم من عاد إلى منزله فور انتهاء الجمالي من خطابه ليتخلص من اللحوم المخزونة لديه.

بدأ الجمالي أولى خطواته نحو الإصلاح بقوة وصلابة متخذًا كل السبل للنهوض بالدولة.

أما أنا فانشغلت في البحث عن نبرة أو أي أثر لها واستبعدت فكرة العودة بدونها، هناك ألمًا لا يبارح صدري، أخشى أن أعيش هنا ما تبقى من عمري بدونها، ولو كانت معي؛ لهان الأمر حتى لو مكثنا هنا بقية العمر، وجودي بدونها عدم، رغم الأهوال التي رأيتها لم أحزن كحزني لضياعها.

قطع شرودي رجل يحاول تكميم فاه الطفل يحاول الابتعاد به عن مرأى الناس، ترددت في الاقتراب، قد أُقتَل وتظل نبرة عالقة هنا، لابد أن أبقى حيًا لأبحث عنها، هل سأترك الطفل يموت؟ هل انغمست روحي في كل هذا القبح فاعتادت الأمر؟! كيف لا أنصر مظلومًا ضعيفًا؟ أمام الرجل قدر يغلي فيه الماء كغليّ دمائي، لا لن أسكت ، رفع سلاحه وصوبها ناحية عنق الطفل فانقضضت عليه وحررت الطفل من يديه، جرى الطفل بعيدًا بينما تشبث الرجل في عنقي

يصارعني مصوبًا نصل السكين تجاهي، فإن هربت وجبته الصغيرة بعيدًا؛ فأنا وجبة حاضرة شهية سخية ،لن أستسلم، سأعيش لأبحث عن نبرة بكل ما أوتيت من قوة سأهزم هذا الجسد الهزيل المريض، كاد النصل يخترق جلدي فأبعدته مصوباً إياه ناحية قلب الرجل فطعنته، هوى أرضًا كورقة شجر زابلة مصفرة مصدرًا صرخة عالية، لا أعلم كيف قتلته؟ كيف لوثت يدي بدمائه؟ ارتجف قلبي وتصارع خفقانه حينما وجدت بعض المارة وجنود الجمالي يحيطون بي، صحت بهيستيريا:

_لا.. لم أقتله لآكله، كاد يقتلني فقتلته رغمًا عني، أرجوكم تبينوا الأمر، أين الصبي؟ كان هناك صبي سيُقتل اسألوه.. لا تقربوا مني.

صحت حتى بح صوتي، قيدوا معصمَيَّ خلف ظهري، ساقوني أمامهم، لم يستجيبوا لاستغاثتي، وقعت في براثن الجند لا مفر منهم.

في اليوم التالي حُشِدَت الناس ليشهدوا إعدام آكلي اللحوم البشرية، وأنا منهم.. صمت مهيب وذل عاتٍ، تطبق الأحكام بصرامة لا هوادة فيها، عُلِّقَت المشانِق وأوقفونا على منصة عالية، بحثت بين الجموع عن نبرة علها تصرخ لرؤياي فأطمئن أنها بخير، «أرجوكِ إن كنتِ بينهم لا تظنِ بي سوءًا، لم أفعل فعلتهم وإن كنت اشتهيت يومًا ذلك فأنا بشر أصيب وأخطئ لكن اليوم أنا برئ مما نُسِبَ إليَّ، فالتمسِ العذر لي وحاولي الفرار من ذلك الزمن اللعين، ابحثي عن ثغرة العودة ولتبقي على قيد الحياة آمنة مطمئنة»

دفعني أحد الجنود ولف الحبل حول عنقي فنطقت الشهادة وأغمضت عيني بشدة، اقترب أحدهم ودفعني من أعلى المنصة لأتلقى عقابي على ذنب لم أرتكبه إلا دفاعًا عن نفسي، هالات مضيئة بألوان الطيف تدور حولي بسرعة تتداخل بعضها في بعض تدفعني داخلها بشدة، غصة تتدفق إلى حلقي جعلتني أختنق، زاد اختناقي أكثر وأكثر، سقط جسدي أرضًا مغشيًا عليّ، هل يشعر الإنسان بجسده بعد موته؟!

عقلي يستمر في التفكير بلا انقطاع! يحاول الفرار من الموت، يدي تتحسس شيء ما! ربما أرضٍ صلبة! هل دفنوني قبلما يأكلني الجوعى؟! حاولت فتح عيناي ببطيء، ما هذا الذي أرى؟ ظلمة القبر أم أنني أهذي؟! شيئا ما بجواري ضخم يكفي لدخول انسان فيه، له ملمس معدني يلمع بصُفرة في الظلام، إنها القارورة، إنني حي! جلست متثاقلاً ثم صحت فزعًا، إنها نبرة تجلس القرفصاء أمام القارورة، صرخت لصياحي ثم بكت، أما أنا؛ فتنفست الصعداء بقلبٍ مطمئن، هدأتها وخففت من روعها حتى سكنت، إنها بخير على ما يبدو لي، سألتها:

_كيف عُدتي ومنذ متى وأنتِ هنا؟ مرت أيام كثيرة صعبة أبحث عنكِ في كل مكان.

أشارت إلى ساعتي؛ فنظرت فيها، الساعة التاسعة وخمسة وثلاثون دقيقة، العقارب تدور بشكل جيد كأنها لم تتوقف بعد!

قالت بوهن:

_ضربني أحدهم على رأسي بشيء ثقيل ليلتهمني، لكن القارورة جذبتني إليها، لم يمر الوقت منذ دخولي القارورة، لقد توقف الزمن بعبورنا الفوهة، وعدت قبلك في نفس الدقيقة التي دخلت بها، أنا أجلس هنا منذ عشرة دقائق، لم أستطع التحرك بدونك.

تعجبت لحديثها لكنه حقيقة ساعتي تحركت خمس دقائق فوق النصف وتلك هي المدة التي حاولت تهدئتها بها، سألتها بقلق:

_إذن أين راضي؟ كنت أراه مغشيًا عليه قبل عبوري الفوهة؟

_عندما لفظتني القارورة كان راضي يحاول تحريكها بشدة وينادي عليك، فزع لمرآي، أخبرته بما حدث فقال إنه سيأتي بشيءٍ من داره ليُهشم القارورة ويفسد عملها لينقذك.

قلت:

_لا بد أن ألحق به في داره لأطمئنه، هيا نخرج من هذا البيت اللعين.

تسللنا خارج الدار، اتجهت نبرة ناحية دارها متخفية واتجهت أنا ناحية دار صديقي راضي، لا أصدق أن الله كتب لي النجاة، وهكذا نبرة، وصلت إلى دار راضي، طرقت الباب ففتحت والدته سألتها عنه فقالت أنه غادر مسرعًا منذ قليل ومعه مطرقة، دق قلبي خوفًا أن يعود للقارورة، تركتها وجريت ناحية دار شندي مرة أخرى، تسللت إلى الداخل، كان هناك كشاف ضوئي مُلقى على الأرض فحملته وأسقطت الضوء في كل مكان، ما هذا الحذاء المُلقى بجانب القارورة؟! أعرف هذا الحذاء جيدًا، انتفض قلبي رعبًا، أسقطت الضوء على القارورة فإذا بمطرقة مُعلقة في فوهتها؛ فسقطت مغشيًا عليّ.

تمت